مفاهيم أساسية لدى بورديو

د.لمياء مرتاض-نفوسي

جامعة مستغانم

- **مقدمة:**

يُعتبر Pierre Bourdieuمن علماء الاجتماع الذين اهتموا بمسائل مختلفة تمس تطور المجتمعاتالرأسمالية الحديثة من خلال أكثر من ثلاثين مؤلفا مهما. كان لديه مشروع أن يرتقي بعلم الاجتماع إلى مستوى من العلمية (بالرغم من تكوينه الأصلي في الفلسفة). وكان له تصور ميكرو-سوسيولوجي نقدي للمجتمع مستبعدافكرة وجود مجتمع ككل موحد متناسق (التصور الماكرو-سوسيولوجي). فالمجتمع حسب هذا التصور عبارة عن حقول مختلفة الأبعاد والمتضمنة للحقل السياسي، الاقتصادي، الإعلامي والثقافي وغيرها من الحقول والتي تتكامل مع بعضها البعض وتتفاعل ضمن فضاء اجتماعي كبير يضم جميع هذه الحقول المختلفة.فالمجتمع من تصور Bourdieuليس كلا متكاملا، بل هو عبارة عن بنيات متعددة لها علاقة ببعضها البعض.حتى المفاهيم التي قامالمفكر بتحديدها هي متداخلة ومرتبطة ببعضها البعض.

انطلاقا من فكرة مفادها أن التغيّر هو نتاج تناقضات داخل المجتمع كما كان يرى Marx، فالمجتمع مستقرّ ظاهريا فحسب. في الواقع هو في تغيّر مستمّر، داخل نسق من الحقول المتصارعة فيما بينها وحتى داخل الحقل الواحد،متفاعلة فيما بينها بالرغم من استقلاليتها الجزئية.

سنقوم في هذا المقال بتحديد بعض المفاهيم المركزية في فكر Bourdieu،كما سنبين تداخلها لفهم ما يحدث في المجتمعات الحديثة.

1- مفهوم الحقل:

يُعتبر **الحقل(champ)**مفهوما مركزيا في فكرBourdieu. بالتأكيد، ليس Bourdieu أول من استخدم هذا المفهوم ولكنه هو الذي أضفى عليى الدراسات المتعلقة به ذلك البعد التحليلي السوسيولوجي. يعتبره "كعالم مصغر (microcosme)مستقل داخل عالم اجتماعي كبير".[1]

بمعنى، أن الحقول يمكن اعتبارها عوالم مصغرة أو مجالات مصغرة تنتمي إلى العالم الكبير المتمثل في العالم الاجتماعي. تتمثل خاصية الحقل في أن له استقلالية عن العالم الكبير، بضوابطه وقوانينه الخاصة به، سواء أتعلق الأمر بالحقل الثقافي،الديني، السياسي،الاقتصادي وكل الحقول الأخرى.

ولكن، ماذا يحدث داخل هذا الحقل أو بالأحرى داخل الحقول المختلفة؟.يجب أن نعرف بداية أن هذا المفهوم قد أستعير من الكهرباء المغناطيسية وهو يعني أن "حيزا ما يسري فيه منطق متناسق للأشياء."[2]

فهو موقع تتفاعل فيه قوى مختلفة. من هذا المنطق، يمكن إدراك الحقل كفضاء "للصراع بين الأفراد، بين مجموعات، حيث يبحث كل واحد عن المحافظة على مكانه، عن التميز، الحصول على مراتب أخرى".[3]

هذه الصراعات لا تحدث عادة بشكل عنيف. هي تحدث بشكل رمزي من خلال رهانات لحصول على مناصب تتجسد عن طريق الحصول على سلطة ومصالح معينة. فالحقل ليس مفهوما "افتراضيا"، بل هو مفهوم إجرائي، واقع متعدد الأبعاد يمكن مقاربته ومشاهدته في الواقع. والحقول المختلفة مرتبطة ببعضها البعض، بشكل أو بآخر، داخل منطق التبادل.

يشمل **الحقل الاقتصادي** "العلاقات والظواهر والممارسات الاقتصادية مثل الإنتاج والتسويق والاستهلاك والحاجات والثروات والسكان والعمل والرأسمال والربح والأسعار والقروض والنقد، ودور الدولة في الإنتاج والتوزيع والاستهلاك ومستوى الحياة وشروط العمل والادخار والسلعة والأجر والتراكم والتبادل.."[4].

كل هذه المفاهيم تتجسد في الواقع في الحقل الاقتصادي، ولا يمكن إدراكها إلا من خلاله، من خلال إدراك واقع الحقل الاقتصادي في فترة زمنية معينة، بإيجاد وفهم طبيعة العلاقات بين هذه المفاهيم، وإدراك طبيعة الفاعلين فيها، وإدراك طبيعة العلاقة بين ممتلكي وسائل الإنتاج وقوى الإنتاج.

أما **الحقل الديني** فيتكون من "العلاقات والظواهر الدينية، كالأديان، والطقوس والمعتقدات والعبادات والأساطير والخرافات والميثولوجيا والمذاهب والفلسفات الدينية وعلاقات القرابة."[5]

فهو يشمل بذلك كل الظواهر التي تمس الدين والممارسات الدينية وما يصطحبها من طقوس.

أما **الحقل الثقافي**، فهو كباقي الحقول تحدث فيه صراعات وهي نوعان اثنان: "الأول داخلي (...) والصراع الثاني خارجي" .[6]

يحدث الصراع الأول على مستوى الفاعلين الثقافيين الذين يحركون الساحة الثقافية في فترة زمنية معينة من كتاب ومبدعين في مجالات فنية وثقافية مختلفة ودور نشر ووسائل إعلام واتصال ومختلف المؤسسات التعليمية. أما الصراع الثاني فيحدث بين الحقل الثقافي والحقول الأخرى بمختلف الفاعلين فيها، من يريدون منافسة الفاعلين في الحقل الثقافي للحصول على مراتب وسلطات معينة. وتعتبر بذلك الحقول أنساقا مختلفة الأبعاد تتفاعل فيما بينها، بتنافس مختلف الفاعلين داخل كل واحد منها وفيما بينها، كأنساق تنافسية تعمل ضمن منطق معين يخضع لمعطيات في فترة زمنية معينة، للحصول على سلطة تمكن صاحبها من المرور من مكانة إلى أخرى ومن منصب إلى آخر.

وما يحدث مع هذه الحقول المختلفة أنها تولد باستمرار التميز (la distinction)بين الأفراد على اختلاف انتماآتهم، مما يولد صراعات مستمرة داخل كل حقل وحتى بين الحقول المختلفة، ومما ينجر عنه بسط سيطرة مجموعة اجتماعية على أخرى داخل منطق "اللعب" والرهان، محافظة بذلك على المواقع التي يحتلها الأفراد "المتميزون" وحتى إنها تقوم على تعزيزها.

وبذلك، يتكون الحقل من "جملة عناصر متشابكة، هي عبارة عن مواقع وسلطات أو مواقف وخيارات أو مصالح واستراتيجيات أو رهانات واستثمارات"[7]، يتم فيها توزيع السلطة وكل أشكال الرأسمال القابلة للتراكم.

هنالك ميادين مختلفة يتم فيها الصراع وهي التي أشار إليها المفكر بمفهوم "الحقل" والتي هي مستقلة عن بعضها البعض نسبيا. تشير هذه الحقول إلى أن المجتمع ليس كلا متكاملا بل عبارة عن بنيات متعددة لها علاقة ببعضها البعض. هذا المنطق يشير إلى أن العلاقات موجودة بإرادة الأفراد الذين ينتمون للحقول المختلفة من خلال استحواذهم على رأس مال معين، و الذي سيحدد في آخر المطاف السلطة التي سيملكها هذا الفرد أو ذاك.

وتمثل هذه العلاقات في الحقل على وجه التحديد "لعبة تنظمها قواعد وانتظامات وتجاذبات (تعاون-منافسة-صراع) من أجل المحافظة على وضع الحقل أو وضع الموقع أو من أجل تغييرها".[8]

غير أن هذه الوضعية لا يستفيد منها إلا أولئك المهيمنون على الحقل للبقاء في موقعهم أو تعزيزه. بينما لا يمثل هذا النوع من اللعبة بالنسبة للمهيمَن عليهم أي مصلحة لهم سوى تعزيز موقعهم "المتدني". وهذا الذي يفرز التميز والهيمنة المستمرة في الحقول المختلفة.

ولتبيين علاقة الحقل بمسألة القراءة، قام Bourdieuبتحليل بنية الحقل الأدبي الفرنسي في مساره التاريخي مبينا كيف أنه "ظهرت المكتبات التجارية في أواخر القرن التاسع عشر ودور النشر التي تشتغل بالتنسيق مع اللجان العلمية، وظهرت المؤسسات التجارية وتطورت الخدمات المكتبية".[9]

فكل هذه الظروف أدت إلى خلق حقل أدبي مميز يرتبط ويدوم بفعل تنافس قوى متصارعة للاستحواذ عليه،داخل الحقل نفسه وبين حقول مختلفة.

2- مفهوم الرأسمال:

يتماشى مفهوم الحقل لدى Bourdieuمع مفهوم آخر ألا وهو مفهوم **الرأسمال(capital)**، كما أنه يواكب مختلف الحقول المقابلة.

ومثلما فعلمع مفهوم الحقل الذي استقاه من الكهرباء المغناطيسية، فقد قام Bourdieu هذه المرة باستعارة مفهوم الرأسمال من علم الاقتصاد، بإعادة توظيفه في حقل علم الاجتماع.وعلى هذا الأساس، فقد طبق مفهوم الرأسمال على مختلف الظواهر الاجتماعية إذ يمكن أن نتحدث عن رأسمال اقتصادي، رأسمال لغوي، رأسمال ثقافي، إلخ...

وما يميز الرأسمال في مدلوله الاقتصادي هو أنه "يخضع لقانون التراكم"[10]، كفضاء لتراكم العلاقات الاجتماعية، الشهادات التعليمية، وكفضاء لهيمنة من يتقنون اللغة الرسمية وكيفية الكلام.

يُقيَّم **الرأسمال الاقتصادي** على أساس "المداخيل، التراث (ممتلكات اقتصادية، وسائل إنتاج)".[11]

أما **الرأسمال الاجتماعي** فيضم كل الموارد والسلطات والعلاقات التي يمكن أن يملكها الفرد والتي تمكنه من الحصول علىشبكة العلاقات الاجتماعية والتي ورثها من المعارف التي جمعتها عائلته والتي سيستفيد منها عند الضرورة، بتقويتها إن استلزم الأمر حتى يحافظ على تلك الشبكة العلائقية. سيمكّنه هذا الرأسمال الاجتماعي من الحصول على مراتب عليا في المجتمع.

كما شهدت المجتمعات الحديثة بروز رأسمال جديد فرض نفسه بقوة في أعمال Bourdieuألا وهو **الرأسمال الثقافي**.

وهو يتواجد من خلال "ثلاثة أشكال: في حالة مدمجة، كنتاج لتحصيل معرفي، في حالة موضوعية في شكل مكتسبات ثقافية (كتب، لوحات فنية، أدوات...) وفي حالة مؤسساتية بالاستحواذ على شهادات تعليمية."[12]

فهو رأسمال لا يحصل عليه بشكل مباشر، يتحول من خلاله كل فعل ثقافي إلى قيمة سلعية لها بدورها قيمة رمزية.

وفي الأخير هناك ما يسميه Bourdieu**بالرأسمال الرمزي** الذي لا يوجد بشكل ملموس كرؤوس الأموال التي عرضناها أعلاه. هو نتاج تراكم رؤوس الأموال الأخرى والتي ستمكنه في آخر المطاف من أن تكون له سلطة معينة.

هو "أي ملكية عندما يدركها عملاء اجتماعيون تتيح لهم مقولات إدراكهم معرفتها والاعتراف بها ومنحها قيمة. وبقول أدق، إنه الشكل الذي يتحلى به كل نوع من أنواع رأس المال لدى إدراكه عبر مقولات إدراك ناتجة عن تمثل أقسام أو تعارضات منقوشة في بنية توزيع ذاك النوع من رأس المال."[13]

فالرأسمال الرمزي هو ملكية تتمخض عن رؤوس الأموال المختلفة (رأسمال اقتصادي، ديني، ثقافي، إلخ...) تمكّن العملاء(agents)من الاعتراف واحترام الذين يستحوذون على رؤوس الأموال الأخرى، مما سيؤدي إلى تعزيز سلطتهم وهيمنتهم على الحقل المعني. وهذا سيؤدي لا محالة إلى الاعتراف بالملكية التي لدى البعض ومنحها قيمة معينة، في فترة زمنية محددة.

كما يُعتبر الرأسمال الرمزي ذلك الشكل الذي يأخذه كل رأسمال عند تمثله لبعض التعارضات الأساسية والتي تكوّن أساس كل رأسمال كالتعارض بين غني/ فقير (رأسمال اقتصادي) أو مثقف/غير مثقف (رأسمال ثقافي).

وهنا تحديدا، يعرض لنا Bourdieuتصوره لمسألة الرأسمال الرمزي والطبقات الاجتماعية إذ يقول في شأن التقسيم العلمي للطبقات إنه يجب أن "يأخذ بعين الاعتبار كون الأعضاء الفاعلين في المجتمع يظهرون كما لو كانوا يتحددون موضوعيا بنوعين متباينين من الخصائص: فمن جهة هناك الخصائص المادية (...) ثم هناك من جهة أخرى، الخصائص الرمزية".[14]

يدخل هذا التصور ضمن منطق التميز بين الطبقات والذي يكون على مستويين اثنين. الأول مادي من خلال مؤشرات موضوعية يسهل ضبطها وقياسها. أما المستوى الثاني، فيكون على مستوى الخصائص الرمزية التي هي إدراك للمعاني الخفية لمفهوم الطبقة والتمثلات (représentations)التي تدور حول هذا المفهوم.. هناك تحليل لهذا المفهوم والتمثلات المتعلقة به كإدراك لواقع متمثَّل بشكل معين، كتقسيم اجتماعي قائم على "موضوعية التمايزات المادية وذاتية التمثلات".[15]

كما تطرق Bourdieuلمسألة الرأسمال الرمزي لما ربطه **بالسوق اللغوية** التي توجد في "كل الحالات التي يحاول فيها شخص ما إنتاج خطاب موجه إلى متلقين قادرين على تقييمه وإعطائه سعرا معينا."[16]

باعتبار حقل اللغة رأسمالا فهو يخضع في المجتمعات الحديثة لنفس قوانين الرأسمال بما فيها منطق العرض، الطلب، التكلفة، السعر وغيرها من القوانين التي تمنح في الأخير قيمة لكتاب ما في السوق اللغوية.

و"التذكير بوجود قوانين لتشكل الأسعار، يعني تأكيد أن قيمة كفاءة ما ترتبط بحالة العلاقات التي تتحدد فيها القيمة الممنوحة للمنتوج اللغوي المرتبط بمختلف المنتجين."[17]

فالكفاءة تُقيَّم على أساس الأرباح في السوق كقيمة رمزية في آخر المطاف، تحدد كفاءة السلعة المعروضة للبيع كباقي السلع الاستهلاكية التافهة. يتحكم في هذه العملية صاحب الرأسمال من خلال الربح الذي يجنيه من بيع هذا لكتاب أو ذاك. ولا تدخل في العملية لا كفاءة المؤلف ولا فكرة الكتاب ولا مكانة دار النشر.

3- مفهوم الهابيتوس:

يلعب مفهوم **الهابيتوس(Habitus)** بدورهدورا مركزيا في أعمال Bourdieuعند معالجته للظواهر السوسيولوجية، لفهم طبيعة الممارسات الاجتماعية، ومعه يتداخل مفهوما: الحقل والرأسمال. فهو بالنسبة له "نظام الاستعدادات والتصوّرات، نظام يسمح بخلق استراتيجيات ومواقف".[118] تمكن الأفراد من تحديد توجهاتهم وأذواقهم. ويتّم من خلال هذه العملية الوصول إلى"توافق بين أنظمة الاستعدادات والبنى المعرفية، وأنظمة الحياة الاجتماعية للأفراد، تُترجم بتصرّفات معيّنة وكأنظمة للحقيقة الخارجية".[19] وبذلك، "يعتبره ميلا أو توجها أو نزوعا، مجموعة استعدادات دائمة وقابلة للنقل."[20]

ويواصل Bourdieu في هذا التحليل ليُدمج"عامل التاريخ في العلاقة بين نظام الاستعدادات والتصورات الموضوعية من خلال اعتباره أن هذه العلاقة تخضع لنظام تاريخي زمنيّ".[21]

بمعنى أن الفكر البشري هو حوصلة تاريخية لما يمرّ به أفراد المجتمع من أحداث هامة تحدّد مسارهم في المستقبل، توجهاتهم وأذْواقهم.بذلك، تُرجعنا نظرية الأبيتوس "إلى نموذجين متناقضين للفعل. من جهة، الحتمية التي تشمل أفعالنا في إطار الإكراهات المفروضة علينا. ومن جهة أخرى، التصور الواهم لفرد مستقل، حرّوعقلاني".[22] فالفرد نتاج البيئة التي عاش وترعرع فيها، ويخضع للضغوطات التي تمارسها عليه، فيتماشى مع النسق الثقافي الذي تمليه، حتّى وإن بدا أنه مستقل وحرّ في أفعاله.

في دراسة اهتمت بمعرفة دور الشعر الملحون في المجتمعات المحلية، اتضح لنا بأن السكان الأصليين الأوائل للمدينة والذين سكنوا حي "تجديت"الشعبي بمستغانم، هم الذين تشبعوا بقيمه وثقافته، فصنعت منهم رجال المسرح، والمغنيين وشعراء الملحون. وبمرور الوقت، أصبح لهؤلاء السكان ميولات لهذه الفنون، استعدادات مكنتهم من توريث هذا الرأسمال الثقافي إلى الأجيال الأخرى.فتكونت لديهم **أذواق**(Gouts)خاصة، "بمعنى أفضليات واضحة، وهي تأكيد فعلي لفرق لا محال منه".[23]

فسلم الأفضليات والأذواق يفرق بين الطبقات والفئات الاجتماعية، فيتحدد على هذا الأساس سلوك الأفراد المنتمين لكل جماعة اجتماعية.كما أن ارتباط الأفراد بجماعة اجتماعية في حي أووسط معين يخلق مجموعة من الظروف المواتية للعيش ومجموعة استعدادات، وهذا ما يسميه Bourdieuبالهابيتوس أي "أنظمة من الاستعدادات الدائمة والقابلة للنقل، بنى مبنية قابلة للعمل كبنى مركّبة".[24]

فالهابيتوس تعبير عن ميولات الأفراد تعمل في نطاق الخبرات السابقة للفرد وتُرَكَّب معها ليتمكن الأفراد في آخر المطاف من القيام بعدة أعمال.و باعتباره "نتاجا تاريخيا، فإن الهابيتوس يخلق ممارسات فردية وجماعية". [25]

والميول إلى هذا الفن أوذاك، يجد جذوره في التنشئة الاجتماعية حيث يتلقن فيها الأفراد مجموعة من المعارف التي ستوجه سلوكاتهم فيما بعد وتحدد اتجاهاتهم وحتى أذواقهم. وبالتالي، يتكون لديهم نسيج من المعارف والمهارات والممارسات يستعيرونها من النسق الثقافي الخاص بهم.

إذا، للتاريخ دور كبير في تفعيل هذه الاستعدادات التي يكتسبها الشبابلتدعيم أذواقهم وميولاتهم نحو الشعر الملحون.وهذا ما يفسر تذوق شباب حي "تيجديت" للشعر الملحون بفعل العوامل التاريخية التي ساعدت على ظهوره وانتشار سائر الفنون الأخرى في هذا الحي،مما أثر تدريجيا على أذواقهم وميولهم لهذا الفن.وكونت لديهم ثقافة خاصة من خلال حفظهم لقصائد الشعر الملحون، التغني بالغناء الشعبي ومعرفتهم لرواد هذين الفنين الاثنين. ما علاقة الثقافة بالهابيتوس؟. ما الثقافة إلا "ذلك الجزء الأكثر بروزا للهابيتوس، الذي يوجه كل التصرفات الاجتماعية : أكل، أدوار الذكور والإناث، طريقة الجلوس على الطاولة، اللغة..."[26]بذلك، يحدد الهابيتوس لدى الأفراد مجموعة تصرفاتهم ومجموعة الاستعدادات التي تجعلهم يقبلون على بعض عناصر الثقافة ويرفضون أخرى، فتتكون لديهم ميولات وأذواق خاصة تؤثر على اختياراتهم النهائية.

والمكان المفضل لملاحظة الهابيتوس هو في المدرسة حيث يقول عنها Bourdieuبأنها " لا تقوم إلا على تقييم (valoriser)ميزات ليست بمدرسية ولكنها موجودة منذ البداية عند دخول التلميذ إلى المدرسة ".[27]

فهناك مؤهلات موجودة لدى فئة من التلاميذ تجعلهم يتميزون عن باقي التلاميذ الآخرين لأنهم ورثوها أو اكتسبوها من محيطهم العائلي، داخل نظام اجتماعي وانتماء طبقي معينين. بذلك، ما ستفعله المدرسة هو فقط إعادة إنتاج هذه الفروقات والتمايزات وترسيخها. انتقدBourdieuبشدة النظام التعليمي وأبرز "علاقته بالطبقات الحاكمة التي توظف هذا النظام لخدمة مصالحها الإيديولوجية والاقتصادية".[28]

نفهم من هذه الفكرة، أنه سيتم إعادة إنتاج الثقافة المهيمنة بكل الفاعلين فيها، من معلمين وأساتذة ومسؤولين والقائمين على تحديد المناهج الدراسية، المتناسين "حقيقة مهمتهم الموضوعية".[29]وهذا ما سيجعل النظام أو المجال التربوي يعيد إنتاج اللامساواة الاجتماعية و التي تنجر عنها بالتأكيد لامساواة اقتصادية.

والحقيقة أن الذي يحدد هذا الهابيتوس أو ذاك كنظام استعدادات وكشرط أساسي لأي ممارسةهو الإحساس بالمصلحة وراء هذا الفعل أو ذاك. هذه **المصلحة** ترتبط بطبيعة الهابيتوس سواء أكانت "فردية، عائلية أو طبقية".[30]

فالمصلحة المرتبطة بممارسة فن ما إما أن تكون فردية مرتبطة بالكفاءات والمؤهلات الفردية، وإما أن تكون هذه المصلحة عائلية حيث يتلقن الفرد من خلال عملية التنشئة الاجتماعية مجموعة من التوجيهاتتجعله يميل إلى تذوق هذا الفن أو ذاك، وإما أن تكون هذه المصلحة في الأخير طبقية كأن يصبو أفراد الطبقة البورجوازية في المجتمعات المحلية أن يتعلم أبناؤهم موسيقى الأندلس باعتبارها موسيقى تقييمية. وفي كل حالة، المصلحة هي التي ستحدد طبيعة الفعل وحدود اللعب الممكنة.

وقد أكد Habermasهذه الفكرة في كتابيه: "التقنية والعلم كإيديولوجيا" و "المعرفة والمصلحة" مصرحا بأن كل نشاط إنساني إلا ويوجه لمصلحة معينة حتى لما تتعلق المسألة باستقلالية المعرفة العلمية، مهما كان حقل النشاط العلمي.

وقد استخدم Bourdieuمفهوم الهابيتوس في علاقته بمسألة القراءة والتلقي حيث كما أشرنا إلى هذه المسألة أعلاه يقوم النظام التعليمي والتربوي

الفرنسي بإعادة إنتاج الفوارق الاجتماعية والإبقاء عليها. كما وضح بأن حظوظ نجاح الأفراد نظرا لانتماآتهم الطبقية المختلفة ولإرثهم الثقافي هي متفاوتة من فرد لآخر. وهي بذلك، تخلق التميز بينهم وتعززه.كما أن التذوق الفني لفنأدبي ما أو لوحة فنيةما يرجع بالأساس للرصيد المعرفي الذي تلقاه الفرد أو ورثه من وسطه العائلي والمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، بما فيه الحقل التربوي والذي يؤدي في آخر المطاف إلى أن تكون له أو لا قابلية للقراءة. فللعائلة دور مهم في تلقين القابلية للقراءة لدى الأطفال. غير أن ذلك غير كاف إذ إن النظام التربوي بمناهجه ومنظومته هو الذي سيدفع بذلك الطفل أو لا لمتابعة القراءة.
كما يشير المفكر إلى مسألة لا تخلو من الأهمية ألا وهي أن الأصل الاجتماعي للطلبة هو أهم عامل للتمايز.. وهنا، يؤكد كل من Bourdieu وPasseron في كتاب: "الورثة" (les héritiers)عن أن "النسق التربوي يسهم في صناعة أرستقراطية اجتماعية".[31]

فللبيئة التي يعيش فيها الطلبة وتحديدا الوسط العائلي دور كبير في تحديد توجهاتهم، كما أنها تؤثر على تصورهم للعلاقة مع المدرسة والفشل المدرسي. بمعنى، أن الأطفال المنحدرين من وسط اجتماعي متدن ليست لهم نفس طموحات وفرص نجاح أولئك الذين ينحدرون من عائلات ميسورة الحال.

تعيد المدرسة إنتاج اللامساواة الاجتماعية. وفي هذا السياق، ربط Bourdieu بين الثقافة العائلية والنجاح المدرسي من خلال نظام الاستعدادات الخاص بكل طبقة اجتماعية والمتكون من نظام من العادات، التمثلات، العلاقة مع العالم المحيط بالأفراد. غير أن هذا "الهابيتوس" غير واع، يُدمج في ذواتنا بشكل غير إرادي، "حاجبا عنا الظروف الاجتماعية لإنتاج تصرفاتنا وآرائنا".[32]

والأطفال الذين نجحوا في الدراسة يعتقدون مع ذويهم وحتى مع معلميهم أنهم "موهوبون" وقد عملوا بجد. غير أن تفسير ذلك يرجع أساسا إلى نظام خاص ورثوه من وسطهم العائلي الذي خلق وهيأ لهم الظروف لذلك. **فالإرث الثقافي** هو المسؤول عن هذا النجاح.

متبنيا التيار الماركسي لفهم طبيعة العلاقات التنافسية المتصارعة بين الطبقات الاجتماعية والتي لها دور أساسي لفهم طبيعة النظام في أي مجتمع كان، ومعترفا بأن هذه الصراعات تحدث على مستوى البنى الاقتصادية والسياسية، غير أنه يضيف أمرا مهما في هذا التحليل ألا وهو أن هذا الصراع انتقل إلى المستوى الرمزي، مما "يمنح للمدرسة خاصيتها واستقلاليتها في لعب العلاقات الاجتماعية بين المهيمنين والمهيمن عليهم".[33] فالمدرسة كنظام تربوي ليست مستقلة عن المجتمع. فهي عكس ذلك تماما إذ إنها تعكس في الواقع ما يحدث في المجتمع من صراع وتناقضات حتى وإن كانت قواعد **"اللعب"** تبدو مستقلة جزئيا.بالنسبة ل Bourdieuالمجتمع ليس كلا متجانسا، بل هو عبارة عن "مجموعة من ميادين "اللعب" المستقلة نسبيا".[34] ويستخدم Bourdieuمفهوم الهابيتوس كمفهوم له عدة أبعاد: "بعد نفسي، بعد عقلي وبعد أخلاقي".[35]

يرتبط البعد النفسي المتعلق بمفهوم الهابيتوس بالذوق الذي يكون لدى المتلقي وتذوقه الفني الذي يرتبط بعمليتي: الوعي والإدراك. أما البعد العقلي لهذا المفهوم فيرتبط بمدى فهم المتلقي وقدرته التحليلية. وفي الأخير، يتمثل البعد الأخلاقي لمفهوم الهابيتوس في كيفية التصرف والمنظومة القيمية التي يتبناها الفرد.

وكل هذه الأبعاد تتفاعل فيما بينها لتمنح لنا ذلك الهابيتوس الذي سيوجه سلوك المتلقي وتذوقه الفني.كما يربط Bourdieu مفهوم الهابيتوس بمسألة أخرى ألا وهي "التذوق الفني". في هذا الصدد، يتساءل Bourdieu عن كيفية نشأة الذوق الفني وكيفية عمله.

كما كان يتساءل عما إذا كانت القابلية لإنجاز فني هي نتاج مواهب أم نتاج عملية تعلم؟

علينا العودة إلى التحديد التاريخي للأسباب التي أدت إلى الحكم بجمالية هذا الإنجاز الفني أو ذاك.و"القابلية الجمالية(disposition esthétique) كقدرة على إدراك وتعداد الصفات الأسلوبية (stylistiques)المحضة لا تنفصل عن القدرة الفنية في حد ذاتها".[36]

فهذا الميول الجمالي هو نتاج عملية تعلم التي ليست لها غاية وظيفية، بل مجرد إدراك لجمالية لوحة فنية لحدذاتها، لشكلها وليس لوظيفتها. كما أن لهذا الميل الجمالي "بعد لعلاقة بعيدة ومضمونة مع العالم والآخرين التي تتطلب الضمان والمسافة الموضوعية".[37]

هذا الضمان والمسافة مرتبطان في فترة محددة بتجاوز ما يفرضه الرأسمال الاقتصادي في هذا الحقل. غير أن هذا التجاوز مرتبط كذلك بالظروف الاجتماعية والفروق الطبقية. فالمسألة متعلقة **"بالذوق"**الذي يقوم في ذات الوقت "بالتوحيد والتفريق".[38]

توحيد ماذا وتفريق ماذا؟

إنه يوحد ذوق طبقة معينة ويفرقها في ذات الوقت عن ذوق طبقة أخرى، لأنه نتاج ظروف وجدانية لأفراد متماثلين نشؤوا في بيئة معينة وتميزهم في ذات الوقت عن أولئك الذين نشؤوا في بيئة مختلفة، في فضاء اجتماعي مخالف. فالذوق هو الذي يحدد الانتماء الطبقي لهذا الفرد أو ذلك- من خلال تصور شخصي وتصور "الآخرين" المختلفين عنا- يحدد علاقته مع موضوع "الذوق"، كما يحدد علاقته بالآخرين وبالعالم المحيط به. ثم إنه يحدد مدى تقبلنا وسيما رفضنا للأذواق الأخرى التي ستُعتبر غير "شرعية" أمام الأذواق المتبعة.

وهذه الاختيارات الجمالية "تتشكل في أغلب الأحيان بالتناقض مع اختيارات الجماعات الأكثر قربا في الفضاء الاجتماعي، التي يكون معها التنافس مباشرا وفوريا بشكل أكبر و مع الذين بالتأكيد تحدد نيتهم بشكل أكثر وضوحا،التي تُتصور كادعاء لتحديد التمايز بالنسبة للجماعات السفلى."[39]

بمعنى، أن الاختيارات الجمالية تدخل ضمن عملية تنافس وصراع مستمرين حول مسألة من لديهم الذوق المطلق والتي على أساسها سيتم التمايز بين طبقات مختلفة. ولا يتم ذلك التنافس مع جماعات متباعدة، بل بالعكس من ذلك. أضف إلى هذا الأمر، أن التمايز سيتم مقارنة مع من سيُعتبرون في سلم أذنى. إذن، أكثر من مجرد الصراع أو التنافس على فرض ذوق معين، فإن

بعض الأفراد الذين ينتمون إلى وظائف ليبرالية مثلا "سيتذمرون من الأغاني الأكثر انتشارا وتداولا"[40].

سنرى هؤلاء يقبلون على الأغاني الكلاسيكية مثلا أو على أغان لأعمدة الغناء الشرقي حتى يعبروا عن ادعائهم الفني برفض المغنين الشعبيين مثلا الذين يستمع إليهم عامة الشعب. فتتحول إدراكات العالم وما يرتبط به من تصورات إلى واقع معيش بخلق ممارسات (فردية وجماعية) كخطاطة للإدراك، للتفكير وللعمل. هذا ما يحدده الهابيتوس من خلال عملية التذوق الفني وكل الممارسات التي تنتمي للفضاء الاجتماعي. فهو خلاصة تجارب تنتمي للماضي. هذا "الماضي الذي هو مرتبط كل الارتباط بالراهن والذي يدنو إلى الدوام في المستقبل بتحيينه في الممارسات المهيكلة تبعا لمبادئه."[41]

فهذا التاريخ الذي يحدد تصرفات الأفراد واستعداداتهم لتقبل فن ما أو التذوق لفن ما لا ينتمي للماضي. فهو يحدد تصرفاتهم الآنية والمستقبلية عبر نظام معياري مبني بشكل مهيكل.وقد تمكّنBourdieuمن فهم"لماذا الشكل الأقل تعقيدا للاستعداد الجمالي والممارسات الأكثر شرعية على المستوى الثقافي والأقل تكلفة اقتصاديا، لها هذا الحظ في أن تتلاقى بتكرار خاص لدى الشرائح الأكثر غنى (نسبيا) في الرأسمال الثقافي والأكثر فقرا (نسبيا) في الرأسمال الاقتصادي."[42]فقد تمكّن من إدراك المنطق الذي يتحكم في حجم رأسمال وبنية التفضيلات، العلاقة بين الرأسمال وطبيعته والميول إلى رياضة أو فن ما.

خاتمة:

بالرغم من بعض الانتقادات التي وجهت لBourdieu، فقد قامبتحديددقيق لمفاهيم مركزية اعتمد عليها عند تحليله لظواهر مختلفة في المجتمعات الحديثة: الحقل، الرأسمال والهابيتوس، وقد قام من خلالها بصياغة نظريات أثبتت صحتها حتى في مجتمعات غير غربية.إلا أن هذه المفاهيم متداخلة مع بعضها البعض. فلا يمكن أن نتحدث عن الهابيتوس بدون التطرق للحقل، الرأسمال والتميز والصراع. ولفهم وتفسير الظواهر على اختلاف مجالاتها، لم يعد علماء

الاجتماع يهتمون بالدراسات الماكروسوسيولوجية، بل بالدراسات الميكروسوسيولوجية، محاولة منهم فهم كيفية عمل البنى المختلفة في المجتمع.

- هوامش و مراجع :

1- Collectif, "Pierre Bourdieu, son œuvre, son héritage", France, Sciences Humaines Editions, 2008, p.13

2- عبد الغني عماد، "سوسيولوجيا الثقافة"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص.99

3- Collectif, op.cit.

4- عبد الغني عماد، مرجع سبق ذكره

5- نفس المرجع السابق

6- محمد مريني، "سوسيولوجية القراءة"، دار النشر الجسور، وجدة، 2007، ص.121

7- عبد الغني عماد، مرجع سبق ذكره، ص.101

8- عبد الغني عماد، مرجع سبق ذكره، ص.100

9- محمد مريني، مرجع سبق ذكره

10-Etienne Françoise Bloess et autres, « Dictionnaire de sociologie », Paris, Hatier, 1997, p.44

11-Thomas Gay, « L'indispensable de la sociologie », France, Studyrama, 2004,p.49

12- Ibid.

13- [1]بيير بورديو، "العقلانية العملية"، ترجمة: عادل العوا، دار كنعان، سورية، 2000، ص.138

14- بيير بورديو، "الرمز والسلطة"، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، المغرب، 1990، ص.69

15- نفس المرجع السابق، ص.72

16- محمد مريني، مرجع سبق ذكره، ص.124

17- نفس المرجع السابق، ص.125

18- عبد الغني عماد، مرجع سبق ذكره، ص.103

19- نفس المرجع السابق ، ص.ص 103-104

20- نفس المرجع السابق، ص.178

21- نفس المرجع السابق، ص.104

22- Collectif, op.cit., p.12

22-Pierre Bourdieu,"La distinction", Paris, les éditions de minuit, 1979, p. 59

23-Pierre Bourdieu, "Le sens pratique", Paris, les éditions de minuit, 1980, p .88

24-Ibid., p .91

25-Philippe Cabin, "Dans les coulisses de la domination, dans : La sociologie, Histoire et idées", France, Editions Sciences Humaines, 2000, p.186

26-Thomas Gay,op.cit., p.53

23- حفناوي بعلي، "مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن"، الدار العربية للعلوم –ناشرون، لبنان، 2007، ص.170

24- نفس المرجع السابق

27-Etienne Françoise Bloess et autres,op.cit., p.46
28-Collectif, op.cit., p.21
29-Ibid., p.30
30-Ibid., p.31
31-

25- عبد الغني عماد، مرجع سبق ذكره، ص.100
26- محمد مريني، مرجع سبق ذكره، ص.127

32-Pierre Bourdieu,"La distinction", op.cit., p.54
33-Ibid., p.59
34-Ibid.
35-Ibid., p.64
36-Ibid., p.65
37-Pierre Bourdieu, "Le sens pratique",op.cit., p.91
38-Pierre Bourdieu,"La distinction", op.cit., p.301